المحاضرة الرابعة:

بدْءُ الوحي ومراحل الدعوة الإسلامية

أولا: الأحداث التاريخية

1.حياة الخلوة:

لما تقاربت سنه ﷺ الأربعين حُبّب إليه الخلاء والعزلة، فكان يأخذ زاده ويذهب إلى غار حراء في جبل النور بمكة، يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ويطعم من جاءه من المساكين، ثم يعود إلى بيته، فلا يكاد يمكث فيه حتى يتزود لخلوة أخرى.

2. بدْءُ الوحي ونزول جبريل عليه السلام:

لما تكاملت سنه ﷺ أربعون سنة بدأت علامات النبوة تلوح، فبدأت بالرؤيا الصالحة في النوم، حتى مضى على ذلك ستة أشهر. ولما كان شهر رمضان من السنة الثالثة عن عزلته ﷺ بحراء، وفي يوم الاثنين ليلا أكرمه الله تعالى بالنبوة، وبنزول جبريل عليه السلام بالوحي.

– روى الإمام البخاري في صحيحه عن السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: " أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ (وَهُوَ التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ[1] إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ قَالَ مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي[2] حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ "**اقْرَأْ**" قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ "**اقْرَأْ**" فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ{**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**}فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ[3] اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ".

---

1 يحن ويشتاق.
2 ضمني وعصرني.
3 أي: يفضحك.

3.جبريل عليه السلام ينزل بالوحي مرة ثانية:

روى البخاري في صحيحه عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فقال: "فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1) قُمْ فَأَنْذِرْ(2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ(6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(7)**}. ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ".

بدأ النبي ﷺ يستجيب لهذه الأوامر، فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام وتزكية النفس.. لكن كل هذا سرا حذرا من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها.

فعرض عليه الصلاة والسلام الأمر أولاً على آل بيته وأصدقائه وأقرب الناس إليه، فأسلم من الأوائل زوجته خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين)، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل، و ابن عمه علي بن أبي طالب، و صديقه أبو بكر بن أبي قحافة، وكانوا هؤلاء في أول يوم من أيام دعوته ﷺ.

ثم نشط أبو بكر الصديق في أمر الدعوة، وكان رجلا سهلا محببا ومألوفا لعلمه وتجارته، فأسلم على يده عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم، فكان هؤلاء الثمانية هم طليعة الإسلام الذين سبقوا الناس بالإيمان بالله ورسوله.

ولما زاد عدد المسلمين عن الثلاثين نفرا اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم (الأرقم بن أبي الأرقم) ليلتقي بهم فيها للتعليم والإرشاد .. كما كانوا يلتقون برسول الله ﷺ سرا متخفين عن أنظار قريش بشعاب مكة من أجل العبادة والصلاة.

قال ابن اسحاق: " ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا، من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة و تُحُدِّثَ به".

دام الأمر على هذا الحال ثلاث سنوات.

ثانيا: العبر والعظات (الفوائد):

1. من الأسباب الربانية التي هيئها الله تعالى لنبيه في تحمل العظيمة قبيل البعثة: حبُّه للخلوة والعزلة، وفي ذلك حكمة جليلة متعلقة بمراقبة الله تعالى والتفكر في مظاهر الكون والمخلوقات الدالة على عظمة خالقها، وهذا هو البعد الروحي للعبادة.

2. كما أن الحكمة ظاهرة لكل عاقل في العزلة الشرعية من محاسبة للنفس وتزكيتها، والهروب بها عن مشاغل الدنيا وآفات المخالطة، وهذا يورث الاتصال الدائم بالخالق سبحانه.

3. من الأسباب الربانية التي سبقت نزول الوحي: أن ما يراه النبي ﷺ في المنام حق، وكذلك باقي الأنبياء صلوات الله عليهم، والحكمة من الرؤية الصالحة أن ما يقوله النبي ﷺ يُصدق في حال اليقظة والنوم، وهذه أعلى درجات الصدق. إضافة إلى أن الرؤية الصالحة هي نوع من الوحي.

4. يستخلص من **حديث الوحي** ما يلي:

أ/ الوحي حقيقة يقينية لا شك فيها وليس كما ادعى بعض المخادعين أنها من باب الصرع أو الخيال أو السحر أو قول الشعر والأدلة ظاهرة في ردّ هذه الأباطيل منها: ما جاء في حديث الوحي نفسه كالحوار الذي جرى بين الملك والنبي وما وقع من الضم والإرسال وما تبع ذلك من الفزع والحمى أدلة على انفصال شخصيتهما.. كما أن صفتيّ الصدق والأمانة التي امتاز بهما محمد ﷺ قبل النبوة دليل على صدق ما رآه.

ب/ أول كلمة من الوحي الإلاهي تخاطب الأمة الإسلامية هي (**اقرأ**) وهذه دلالة على أن هذه الأمة أمة قراءة وعلم ومعرفة، ثم قال (**باسم ربك الذي خلق**) هي دلالة على أنها أمة الإيمان بهذا العلم والعمل به، ثم قال (**الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم**) هي دلالة على أن العلم كله من عند الله تعالى، ويُطلب هذا العلم ويُقيد بالقلم.

ج/ الموقف المهول والخوف الشديد الذي أصاب نبي الأمة فيه دلالة على أن الأمر جاد وخطير، فيه نقلة من ظلام الشرك والوثنية إلى نور الإيمان والهداية[1] قال تعالى:"**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**". المزمل /5

د/ في إجابة ورقة بن نوفل دليل آخر على صدق نبوته ﷺ وأنه قد جاء ذكره في الكتب السماوية السابقة.

و/ في حواره ﷺ مع ورقة بن نوفل دليل على أن ما فوجئ به عليه الصلاة والسلام هو الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء قبله، وهو إزالة للبس الذي غشيه في خلوته والخوف الذي اعتراه عند لقاءه بالمَلَك.

5. جاء الملك في المرة الثانية بالأوامر في أوائل سورة المدثر، وهي أوامر بسيطة في ظاهرها لكنها تحمل رسالة عظيمة وشديدة على حاملها في باطنها، وقد مهّدت لمرحلة جديدة مبدؤها : "**قمْ فأنذر**".

6. أوحى الله إلى نبيه بأن يتكتم في دعوته في بدايتها وهذا لحكمة بالغة هي تقديم مصلحة النفس عند قلة العدد وضعف العدة، و أخذا بمبدأ الحيطة والحذر ودراسة الأسباب المتوفرة الموصلة إلى الأهداف المرجوة، وهذا كلّه من باب السياسة الشرعية الواجب اتباعها في كل حين.

7. أول ما فرض في هذه المرحلة المتقدمة من الدعوة الإسلامية الصلاة، وكانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي لقوله تعالى "**وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار**" غافر / 55

8. رغم أن هذه المرحلة اتسمت بالفردية والسرية إلا أن قريشا قد سمعت بخبر محمد ﷺ وأصحابه، لكنها لم تكترث لذلك في بداية الأمر معتقدة أنهم من الذين يشتغلون بالألوهية والصلاة فقط.. ولا يتعدى الأمر المساس بآلهتهم.

[1] وقد جاء هذا الموقف فجأة ليعلن عن تغيير سيحصل في مجرى تاريخ الإنسانية .